خطبة صلاة الجمعة 21/11/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(بينَ الحَقِّ والوَاجِب)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 42]

وقال سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4] وفيها: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: 53]

قال المفسرون: (لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) بمعنى: لا يمتنعُ منه ولا يتركُه.

عن عَبْدَ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا»** قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **«أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ»** [البخاري]

عنوان خطبة اليوم:

بين الحق والواجب

سبق في الأسبوع الماضي حديثٌ عنوانُه (لصاحب الحق مقالٌ) وخلصنا من الخطبة أنَّ صاحب الحق مطلوبٌ إليه أن يبحث عن حقه بضوابط خمسة:

أن يكون حقاً، وأن يبين عنه، وأن يحمل معه الدليل، وأن يطلبَه بحكمة، وألَّا يملَّ من المطالبة به.

وصحيح أنَّ لصاحب الحق مقالاً، ولكن على صاحب الحق واجبٌ أيضاً.

فالعلاقةُ بين الحق والواجب علاقةُ تلازمٍ، وما هو واجبٌ عليك هو حقٌّ لآخر، وما هو حقٌّ لك هو واجبٌ على ذلك الآخر؛ بل إنَّ الحق يولدُ واجباً.

عندما تطالبُ زوجةٌ بحقها على زوجها بالاحترام والنفقة، ويطالبُ أبٌ بحقه على ولده بالبر والصلة، ويطالب شابٌّ بحقه على المجتمع بالعون والدعم...

نقول لكل هؤلاء:

إنَّ مطالبتَكم بالحق مشروعةٌ معقولةٌ، ولكنَّ الشرعَ والعقل والفطرة تطالبكم بواجبِ طاعة الزوجة زوجها والتودد إليه، وبواجب عونِ الأب ولدَه على برِّه بإحسانِ نشأته والسهر عليه، وبواجب الشاب بالجد والاجتهاد وخدمة المجتمع والحفاظ عليه.

فلو اشتغل الناس بأداء الواجبات لاستراحوا كثيراً من المطالبة بالحقوق.

يقول أحد المفكرين: (وإنَّ النكسةَ كبيرةٌ جداً في نقل اهتمام الناس للمطالبة بالحقوق بدل شغلهم بأداء الواجبات؛ لأنَّ الذي يشتغل بطلب الحق يستريح، والذي يشتغل بأداء الواجب في نَصَب لا يستريح، وحين نؤدي الواجبات نضمن وصول الحق لصاحبه).

يروي مالك بن نبي المفكر المسلم الجزائري مشاهدة في هذا الموضوع يقول:

(شاهدتُ خلال بعض المواقف في الجزائر جيلاً من الناس يقفون من قضيةٍ مهمةٍ بالنسبة للشعب الجزائري وهي قضية الأمية، يقفون منها موقفاً جديراً بالملاحظة، فقد كتب هؤلاء المقالاتِ الطويلةَ لشرح هذا المرض الاجتماعي الخطير، موضِّحين نتائجَه المنكرة في حياة الفرد، وهم في هذا كله يهاجمون الاستعمار في خطبٍ ملتهبةٍ بالحماس متَّقدةٍ بالوطنية، ويطالبون بحق الإنسان الجزائري في التعلم، وهكذا يستمرون في خطبهم ومقالاتهم حتى تتقطَّعَ أنفاسُهم عن الكلام، وتمر الأعوام تلو الأعوام والمشكلة لا تجد في مجهوداتهم حلها، ذلك أنهم لم يدخلوا إلى المشكلة من طريق حلها.

لقد أصدرت الحكومة الفرنسية عام 1940 قوانين استثنائية قاسية حول تنظيم التعليم في مختلف مراحله، وشعرت بأنَّ أطفالها قد أصبحوا مهددين بالأمية، غير أنها لم تكتب مقالةً واحدةً تستنكر هذا الأمر، ولم يُلقِ واحدٌ منها محاضرةً عن هذا الأمر، وإنما اجتمعتِ النخبةُ فيها ودرستِ المشكلةَ لكي تحدد موقفها منها، وحددتْ موقفها بأن يتطوعَ كلُّ ذي علمٍ بقدر ما عنده من العلم، وهكذا أصبح كل بيتٍ من بيوت المتعلمين مدرسةً في ساعات معينة، فالاختلاف هو في الموقف الاجتماعي إزاء مشكلةٍ معينة)

يقول مالك بن نبي: (وهذا المرض لا يزال مسيطراً على العقول، فكثيراً ما نسمعُ في قريةٍ من القرى أو حيٍّ من الأحياء المطالبةَ بحقهم في فتح طريقٍ أو تنظيف شارعٍ أو فتح مدرسة، وكان بوسعهم أن يتعاونوا لإنجاز مثل هذا العمل. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الناس القيام بالواجب عندما أعطى الذي جاء يطلب صدقة حبلاً وفأساً وأمرَه أن يحتطب ولا يتكفَّف أيدي الناس).

أيها الإخوة:

الخطيب البغدادي أحمد بن علي من وفيات 463 هـ، أحد الحفاظ المؤرخين المقدَّمين. كان عارفاً بالأدب ولوعاً بالمطالعة والتأليف، ذكر ياقوت الحموي أسماء 56 كتاباً من مصنفاته، من أفضلها (تاريخ بغداد) أربعة عشر مجلداً. (الكفاية في علم الرواية) في مصطلح الحديث.

عرَّفَ الخطيبُ البغداديُّ الْعَدْلَ (أي: الإنسان العدل) فقال: (هُوَ مَنْ عُرِفَ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَلُزُومِ مَا أُمِرَ بِهِ, وَتَوَقِّي مَا نُهِيَ عَنْهُ, وَتَجَنُّبِ الْفَوَاحِشِ الْمُسْقِطَةِ, وَتَحَرِّي الْحَقِّ وَالْوَاجِبِ فِي أَفْعَالِهِ وَمُعَامَلَتِهِ, وَالتَّوَقِّي فِي لَفْظِهِ مَا يَثْلِمُ الدِّينَ وَالْمُرُوءَةَ, فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالَهُ فَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِأَنَّهُ عَدْلٌ فِي دِينِهِ).

والشاهد أنَّ المرءَ لا يكون عدلاً حتى يتحرى الحق والواجب في أفعاله ومعاملاته، فمن أعطى الحقَّ من نفسه كان عدلاً، ومن اعتدى على حقوق الناس فقد أضر بعدالته.

وعندما يلتزم كلٌّ منا بواجبه، ويبحث كلٌّ منا عن مسؤوليته في بذل ما عليه، تصلُ الحقوق إلى أصحابها وتتوازن الحقوق والواجبات.

إنَّ وقوفَ المرءِ فينا على دوره وعدمَ تخطِّيه حِفظٌ لحقوقِ الآخرين.

إنَّ مراعاةَ قواعدِ السير وقواعدِ النظافة العامة حِفظٌ لحقوقِ الآخرين.

إنَّ رعايةَ المعلمِ طلابَه والأبِ أبناءَه والزوجةِ زوجَها وصاحبِ العمل عمالَه حِفظٌ لحقوق الآخرين.

إنَّ بذلَ أصحاب المناصب الرفيعة الشفقةَ للعامة من الناسِ حِفظٌ لحقوقِ الآخرين.

إنَّ التزامَ الشاب الآدابَ الاجتماعية ورعايةَ العفاف المجتمعي والسعيَ في التحصيل العلمي والخلقي والعملي حِفظٌ لحقوق الآخرين.

إنَّ تمسُّك أهل القضاء بقوانين العدل والإنصاف حفظٌ لحقوق الآخرين.

إنَّ الإسلامَ يربي أتباعَه على البحث عن واجباتهم ليلتزموها، ويخاطبُ كلاً منهم ويجعلُه مسؤولاً، ويسميه (المكلَّف) بمعنى أنه المتحمل للمسؤولية، ويطالبُه أن يتعلم واجباته في البيع والشراء والأخذ والعطاء؛ ليعلمَها ويعملَ بها ويعطي الحق من نفسه.

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا يُعَدُّ الرَّجُلُ عَاقِلًا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ ثَلَاثًا: إِعْطَاءَ الْحَقِّ مِنْ نَفْسِهِ فِي حَالِ الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَنْ يَرْضَى لِلنَّاسِ مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ، وَأَنْ لَا يُرَى لَهُ زَلَّةٌ عِنْدَ صَحْوٍ.

فالقاعدةُ الرئيسةُ في الإسلام الواجباتُ، بينما القاعدةُ الرئيسةُ في القوانين الوضعية الحقوقُ.

عن شريحٍ قال:

افتقد عليٌّ رضي الله عنه درعًا له في معركة، فلما انقضتِ الحربُ ورجع إلى الكوفة، أصاب الدرع في يد يهودي يبيعها في السوق، فقال له: يا يهودي، هذا الدرع درعي، لم أَبِعْ ولم أهَب، فقال اليهودي: درعي وفي يدي، فقال علي: نصيرُ إلى القاضي، فتقدما إلى شريح، فقال شريح: قل يا أمير المؤمنين، فقال: نعم، أقول: إنَّ هذه الدرع التي في يد اليهودي درعي، لم أبع ولم أهب، فقال شريح: يا أمير المؤمنين بيّنة، قال: نعم قنبر والحسن والحسين يشهدون أنَّ الدرعَ درعي، قال: شهادةُ الابن لا تجوز للأب، فقال: رجلٌ من أهل الجنة لا تجوز شهادته؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»** [الترمذي]

فقال اليهودي: أميرُ المؤمنين قدّمني إلى قاضيه، وقاضيه قضى عليه! أشهد أنَّ هذا الحق، أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله، وأنَّ الدرعَ درعُك، كنتَ راكباً على جملك الأورق وأنتَ متوجّهٌ إلى صفين، فوقعَت منك ليلاً، فأخذتُها.

قال علي -رضي الله عنه-: أما إذا قلتَها فهي لك، وحمله على فرس.

عندما تعطِ الآخرين الحقَّ من نفسك تصل إلى خير الدارين.

قرأتُ في كتاب عنوانه: (وجهةُ العالم الإسلامي):

(لسنا بحاجة إلى نظرية تهتم (بالحق) على حدة، أو (بالواجب) على حدة، فإنَّ الواقع الاجتماعي لا يفصلهما، بل يقرنهما، ويربط بينهما في صورة منطقية أساسية، هي التي تسيّر ركب التاريخ.

ومع ذلك فينبغي ألا يغيب عن نظرنا أن (الواجب) يجب أن يتفوق على (الحق) في كل تطورٍ صاعد، إذ يتحتم أن يكون لدينا دائماً محصولٌ وافر، أو بلغة الاقتصاد السياسي (فائض قيمة). هذا الواجب الفائض هو أمارة التقدم الخلقي والمادي في كل مجتمع يشق طريقه إلى المجد.

وبناءً على ذلك يمكننا القول: إنَّ كلَّ سياسةٍ تقوم على طلب (الحقوق) ليست إلا ضرباً من الهرج والفوضى، أو هي، (يد) تطيل عمر الحياة الأميبية للناس).

أيها الإخوة:

ما استطاع المرءُ فينا أن يؤدي الذي عليه فليفعلْ، فإنَّ الخيرَ كلَّ الخير في فعل المأموراتِ وتركِ المنهيات التي أمرَ اللهُ تعالى بها ونهى عنا.

روى أبو نعيم في الحلية عَنْ عَلِيٍ، قَالَ: أَشَدُّ الْأَعْمَالِ ثَلَاثَةٌ: (إِعْطَاءُ الْحَقِّ مِنْ نَفْسِكَ، وَذِكْرُ اللهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَمُوَاسَاةُ الْأَخِ فِي الْمَالِ).

والحمد لله رب العالمين